المُنتَهَى..

«أما أنتم فطوبىٰ لكم، ستأتون فىٰ ربيع زاهر كالجنّة»

كان خلقًا آخر في محاربته للمرض وتحديه له..

لـم يكـن المـرض سـجنًا لقوتـه، لكنـه كـان باعثًـا لـه علىٰ الهمـة والنشاط..

أصـحاء بجانبـه كنَّـا.. لا نقـوىٰ علىٰ العمـل كمـا يقـوىٰ، ولا علىٰ الإنجاز كما تعوَّد.

لله درُّه!

قليلون هم مَنْ يتحدَّون المرض..

وكثيرون مَنْ يتحدَّاهم المرض، فما إن ينشب أظفاره حتىٰ تراهم شخوصًـا غيـر الـشخوص، فينـأىٰ عـنهم الأمـل، كأنمـا يـساقون إلـىٰ الموت وهم ينظرون!

تذبل أوراقهم، كأنما أقبل خريف العمر في غير إدبار..

يخضعون للأشياء بعد أن كانت تخضع لهم..

ليس مولانا من هؤلاء!

***

أضحىٰ نزيلا مميزًا علىٰ العيادات الطبية والمشافي..

وأضـحت الغرفـة 406 بمـشفىٰ كليوبـاترا بـضاحية مـصر الجديـدة

مصيفًا له ومشتىٰ في كل شهر تقريبًا..

يصحبه محمد الحداد أو رضا الميداني أو مصطفىٰ غنام، وغالبًـا مـا كنت أبيت معه في المشفىٰ لكوني من سكان مدينة نصر.

لم يك مطيعًا لأوامر الأطباء ولا مكترثًا لإرشاداتهم..

كثيرًا يقول: أنا طبيبُ نَفْسِي، أعلم ما يضرها وما ينفعها.

لـم يكـن ذلـك صـحيحًا علـىٰ الإطـلاق، فلـو تركنـا نفـسَه لنفـسِهِ لأهلكها!

لا يتناول العلاج إلا بعد لأيٍ ومشقةٍ!

أما الطعام، فيأكل ما يروقه، لا ما يروق الطبيب.

ليس بإمكانك– مثلا– أن تثنيه عن استعمال كميات غزيرة من ملح الطعام المضر، أو الأطعمة المسبوكة، ولا تنفع معه شفاعة الشافعين!

حتىٰ صـديقه الـدكتور عبـد الله عيـاد– الجـراح المعـروف– يـضج بتفنُّنه في عصيان أوامر الأطباء..

كثيرا ما قال لـه: أنـا حاسـس إنـك مـش أسـتاذ تـاريخ؟! مـا تكـونش أستاذ كبد يا عبد الحليم؟!

التمسَ العـلاجَ في كـل بلـد يـزوره بـدءًا مـن الأردن وتركيـا وأمريكـا والسعودية واليمن.. حتىٰ السودان وهي آخر ما زار.

لكن أمرًا عجيبًا كان يحار أمامه الأطباء:

ما كل هذا التحدي للمرض؟!

وكيف يتأتىٰ لأحدٍ أن يصارع المرض ويصرعه؟!

لم يقل مرة إني مريض..

غاية ما يقوله إذا اشتد عليه الألم:

«يا لطيف، أنا عبدك الضعيف»

***

ها هو يهم بدخول المشفىٰ، فتجمع له زوجته ما يحتاج إليه من ملابس وغيرها، بينما ينشغل هو بحمل الكتب، والأوراق.. وبعض الأقلام!

كانت القراءة والكتابة ديدنه حتىٰ في العناية المركزة، ولن تفلح محاولات الأطباء ولا الأحبَّاء منعه من القراءة والكتابة..

كان الكتاب والقلم معشوقيه.

في مشفىٰ (ياسين عبد الغفار) الشهيرة لم يسمحوا له باصطحاب الكتب ولا الأوراق.. فاحتال حتىٰ غادرها علىٰ حين غفلة من حَرَسِها..

عجيب أمر الرجل!

في كل مرة يدخل فيها العناية الفائقة يخرج كأن لم يمسه ضرٌّ ولا نَصَبٌ!

طالما تعجبنا لذلك..

حاد الذكاء كان، وقَّاد الفطنة كان، يرىٰ في أعيننا الدهشة فيبغتنا بقوله: لا تتعجلوا.. فلم يحن الوقت بعد، أظن أنني سأعيش سنواتٍ أُخر.

يا إلهي!

كان الأمل ينير دروب حياته كشاب عشريني متفائلٍ بحياة رغيدة!

***

آنسنا منه تشبثًا بالحياة لا لشيء إلا لخدمة الدين والعلم!

طالما سمعناه يلهج بالدعاء قائلا: «اللهم بارك لي في وقتي»

أوهمناه بأننا أرسلنا التقارير الطبية إلىٰ الصين.. لزراعة كبد جديد.. وأن الموضوع يحتاج إلىٰ وقت لتوفير المتبرع، ففرح لذلك واشتهش كثيرًا..

وأوعز الحداد إلىٰ الأطباء أن يوهموه أيضًا، فكان كلما عاود الطبيب ازداد صحةً وألقًا.. وزاد الطبيب تأكيدًا أن الرجل يعيش أيامًا معدوداتٍ..

غريب أمر الرجل!

لم يكن ليخضع.. حتىٰ لسنن المرض.

***

من عجيب ما رأيت أنه ظل في غيبوبة مدة ثلاثة أيام ساكنًا لا يُحس فيها بمن حوله.. ظننا أنه الفراق، وتأهبنا لذلك.

ثم كانت الإفاقة!

لقد دبَّت فيه الروح ثانية!

رأىٰ دهشتنا فقال: أظننتموني سأقضي؟! والله منذ أيام وأنا أُفسر آيات الله تعالىٰ وأعيش في رحابه، فهَلُمُّوا إليَّ بالقلم والورق،

تذكرت حينها يوم أن أدركته الغيبوبة في السودان، كان يقول: أنا هنا في الجنة فلا تخرجوني منها..

ألا تصدقوني؟!

والله إني لفي جنة النعيم..

كنا نظنها من تأثيرات الغيبوبة..

لكنها لم تكن كذلك..

تُرىٰ هل رأىٰ مقامه في الجنة هناك؟!

ربما!

***

قبل رحلة السودان الأخيرة، ساءت حالته كثيرًا، أصبح يغيب عنا أكثر ما يحضر.. قاتل الله الغيبوبة!

لن أنسىٰ ما حييت- ذلك اليوم..

حملناه علىٰ كرسيٍّ لنخرجه إلىٰ السيارة، فتعثر أحدنا فوقع منَّا علىٰ الأرض..

تألم كثيرًا.. ، تألمنا أكثر وأكثر، فقد كان في عالم الغيب وكنا في عالم الشهادة..

لم أتمالك نفسي!

فما رأيته بهذا الضعف والوهن..

رآني أبكي.. فبكىٰ!

مد يده يربت بها علىٰ كتفي..

حانت دمعة فشقت الخد كأنها إعصار فيه نار..

هرولتُ إلىٰ الداخل.. ارتميتُ فوق سريره.. أخذتني نوبة بكاء مرير ارتوتْ منها الوسادة.

***

عاد مولانا سيرته الأولىٰ..

هو في الغرفة 406 بمستشفىٰ كليوباترا..

حوله الكتب والأوراق المتناثرة والأقلام ذات الألوان المتباينة..

يُملي عليَّ ساعة.. ويأتيه الحداد فيُملي عليه.. وهكذا..

تدهورت الحالة أكثر.. كان لزامًا أن يُحجز في العناية الفائقة..

مكث فيها ساعات حتىٰ أفاق.. لكن الحالة لم تستقر..

دبَّت الحياة في أوصاله مرة أخرىٰ.. نزع التنفس الصناعي.. وفكَّ ما اتصل به من أجهزة طبية.. عبثًا حاولت الممرضات، فالأطباء أن يثنوه عن ذلك فلم يفلحوا..

لما كان يوم الأربعاء، طلب من الحداد أن يكتب ما يُمليه عليه..

ليس مقال التبيان فقط.. لكن ثمة مقالات أخرىٰ ورسائل عديدة..

أوصي فيها بمصر خيرًا..

ووجَّه رسائل أخرىٰ إلىٰ التيارات الإسلامية.

وإلىٰ مرشحي الرئاسة.. نصحهم بأن يتقوا الله في مصر.

كأنه يعلم ما سيكون من أمرهم!

لم ينس أن يناشد الحكام العرب وقف حمامات الدم والكفَّ عن

قمع شعوبهم..

طالب بإتاحة الفرصة أمام الإسلاميين لتولي السلطة ومساعدتهم للنهوض بمصر..

كان- بلا ريب- صاحب قضية.

***

جئته ومعي الصديق الدكتور أحمد محمود فطلب منا أن نجتهد في عمل قائمة بمائة شهيد منذ ظهور الإسلام حتىٰ ذلك الآن!

وعدناه أن نقوم بذلك، لكنه ألحَّ أن نُملي علىٰ الحداد ما لدينا..

جلسنا نعتصر الذاكرة وهو يسبقنا في اقتراح أضعاف ما نقترح..

وصلنا العدد أربعة وستين.. ثم توقفنا.. وعدناه بأن نتم ذلك الأمر..

كان متعجلا لإخراج موسوعة (الشهداء المائة) كما أصدر (المجرمون المائة).

في اليوم التالي تحسَّنت حالته قليلا، وسرعان ما ألحَّ في الخروج، فأجابه الأطباء!

ثم بدا له أن يذهب إلىٰ مسقط رأسه بالمحلة يوم الجمعة..

وهناك قابل أحد الأطباء الذين كانوا يعالجونه في مراحله الأولىٰ، فبادره قائلا: أراك مريضًا جدًا يا دكتور.

لم يكترث له، وأطرق قليلا ثم قال: أنا بخير، والحمد لله، وقريبًا سأزرع كبدًا جديدة!

ابتسم الطبيب ابتسامة صفراء ثم فَجَأَة:

ما خلاص يا دكتور فات المعاااااد! أنت في سنٍّ لا يسمح لك بهذا، ولو سمح السنُّ ما سمحت الحالة الصحية.

ما أغباه من رجل!

أنُزع منه عقله؟!

بل إنسانيته..

بل هما معًا!

كان وقع كلامه أثقل من الجبال الرواسي..

لقد حطَّم آمال الرجل الذي طالما عاش يتولىٰ إلىٰ ظلِّ الأمل..

تفصد جبينه عرقًا،

دارت به الأرض،

خارت قواه،

لم تحمله قدماه..

لحظات.. ثم دخل.. في غيبوبة..

اتصل بي الحداد، فغادرت إلىٰ المحلة الكبرىٰ من فوري

طيلة الطريق.. تخونني دموعي.

***

يا له من يوم عصيب..

ليس من عادتي أن أراه في العناية الفائقة..

تراجعتُ خطواتٍ إلىٰ الوراء..

- «انظر إليه فربما كانت المرة الأخيرة» دفعني الحداد قائلا..

تقدمت خطوة.. تراجعت خطوتين.

أغمضت جفوني.. فتحتها..

لم أستطع التقدُّم أكثر.. تسمَّرت قدماي..

نظرت من خلف اللوح الزجاجي السميك.. علته غشاوة لم تنقشع.. ويا لهول ما رأيت!

جسده النحيف ممددٌ علىٰ السريرِ .. تعلق به الأجهزة من كل جانب.. المؤشر الأخضر يتحرك علىٰ استحياء..

ما أشد بياض وجهه في ذلك الحين!

يا رحمة الله لعويس..

ألا يرانىٰ؟!

ألا يسمعني؟!

ألا يحدثني؟!!

أرجوك يا مولاي!

أسمعني صوتك، ولو تعنيفًا!

امنحني منك نظرة، ولو ساخِرة!

أشر إليَّ، ولو بسبابتك!

أين نشاطك سيدي؟!

أين قوتك؟!

بل أين عنفوانك؟!

لو كان بيدي لافتديتك بروحي!

انهمر الدمع مني.. لكن لم يك مجديًا!

ساعات ولبَّىٰ النداء..

رحل الشيخ، وترك المريد..

تركه..

يبحث..

عن إنسان!